عنوان البرنامج: القيم
الوحدة الثانية: مفهوم القيمة في ترابطاته مع مفاهيم ذات الصلة
الدرس الأول: القيمة والحاجة والدافعية
اسم المحاضر: الدكتور محمد بلكبير

القيمة والحاجة والدافعية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد

نواصل الحديث في هذه الحلقات المباركة تكملة لما تم عرضه في الحلقات الأربع السابقة حول القيم، نتناول في هذه الحلقة الخامسة بعدين آخرين يرتبطان بالقيم، ويمثلان مفهومين لصيقين بالقيم، ويتعلق الأمر بالحاجات والدوافع، لأننا حينما نتكلم عن القيم قد نستحضر في إطار واع هذين المفهومين، وقد لا نستحضرهما، ولكن يبقيان مرتبطين بالقيم، مما يوجب استحضارهما حين الحديث عن القيم، لأن الدافع والحاجة مفهومان سيكولوجيان، ومن هنا يكملان مفهوم القيمة أو مفهوم القيم بصيغة الجمع.

فكما تم الحديث سابقا على مدى الترابط الحاصل بين قضايا سوسيولوجية والقيم، وكذلك عرجنا على بعض القضايا المتعلقة بالجانب السيكولوجي حين الحديث عن القيم، هنا نشخص أكثر حينما نتكلم عن هذين المفهومين اللذين هما الحاجات والدوافع.

الحاجات: بعد غريزي متأصل في الإنسان، فالإنسان هو مجموعة من حاجات، وهذه الحاجات قد تتعدد بين حاجات أولية أساسية، وبين حاجات تكميلية، وإذا كان العلماء، علماء النفس بشكل خاص، يربطون الغرائز بالحيوانات، على أساس أن الغرائز عند الإنسان تتبدل وتتغير وتُعدّل انطلاقا من البعد الحضاري، والبعد الثقافي للإنسان، وبذلك لا تبقى الغرائز غرائز بشكلها البدائي الفطري، فحينما

نتكلم عن غريزة الجوع، فالإنسان يجوع ولا يتعلم كيف يجوع، ولكنه يتعلم كيف يُشبع الجوع، وبالتالي لا يتناول أي طعام ولا يشرب أي شراب إلا ما هو مباح له شرعا وثقافة ودينا.

الحاجات تدخل في هذا الإطار الغريزي الذي يتطلب الإشباع، إذن هناك نقص بيولوجي داخلي على الإنسان أن يشبعه، وعدم إشباع هذا النقص يحدث اضطرابات لدى الإنسان، قد تخل بنظامه الفيزيولوجي أو نظامه الاجتماعي أو نظامه السيكولوجي، إذن لذلك يكون من الأساس ومن الضروري إشباع هذه الحاجات، ولكن القيم هي التي تبين كيف يمكن إشباع هذه الحاجات، فالإنسان الذي لا يمتلك قيما إذا افترضنا جدلا، فإنه عندما يُشبع هذه الحاجات يشبعها بشكل عشوائي، وبشكل غير منتظم وغير خاضع لمحددات ولا لضوابط، ومن هنا يرى بعض العلماء أن الفارق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان يمتلك هذه التمثلات القيمية التي تحدد أطر الإشباع، في حين أن الحيوان لا يمتلك هذه الأطر القيمية، ومن ثمة عُرف الإنسان بأنه كائن قيمي. فحينما نقول «كائن اجتماعي» أو «كائن ثقافي» يجب أن نضيف كذلك أنه «كائن قيمي»، في حين أن الحيوان ليس كائنا قيميا. المفارقة تقوم أساسا على أن كلا الكائنين الإنسان والحيوان يمتلك حاجات أولية، ولكن الخلاف يكمن أساسا في أن الحيوان لا يمتلك هذه القيم. ومن ثمة فإن القيم هي التي تُدبّر وتُؤسس وتحدد الضوابط التي بموجبها يمكن للإنسان أن يشبع الحاجات، لأن إشباع الحاجات سلوك، وهذا السلوك يحدث في إطار ثقافي اجتماعي، أي أنه مؤطر بمجموعة من القيم. إذن في غياب القيم لا يحدث الإشباع وفق ما هو مطلوب، وإذا فرضنا مثلا أن الإنسان كما سبقت الإشارة يحتاج إلى طعام فهذه الحاجة قائمة أساسا، ولكن لا يمكن تناول أي طعام إلا في إطار ما تحدده هذه القيم. الإنسان محتاج إلى إرواء ظمأ، ولكنه لا يمكن أن يشرب أي شراب، مهما كان هذا الشراب مُرويا للعطش، إلا إذا كان مباحا، والذي يحدد هذه الإباحة هي القيم، إذن الحاجات في غياب القيم تبقى عشوائية، ومن ثمة فإنسانية الإنسان تكمن فيه حينما يستحضر هذه القيم التي تؤطر إشباع حاجاته.

المفهوم الثاني هو الدافع، هو أيضا مفهوم سيكولوجي يرتبط كذلك ارتباطا وثيقا بالقيم، فحينما نتحدث عن الدوافع وعن الحوافز، الفرق واضح على مستوى التحديد النفسي أو السيكولوجي في أن الحوافز هي حاجات مادية ملموسة، في حين أن الدوافع هي حاجات سيكولوجية نفسية، ولذلك حينما نقول لشخص رياضي مثلا، إذا قمت بإنجاز جيد في هذا المجال فسوف تكون لك مكافأة مادية، إذن هذا الرياضي هو أمام تحديين، تحدي قائم على الحافز، وهو المال الذي سيجنيه ويربحه

حينما يؤدي المطلوب منه على أحسن وجه، لأنه سوف يفكر فيما سيحصل عليه من مال، فالمكافأة حافز، ولكن هذه المكافأة تخلق له توترا داخليا وقلقا لأنه يسعى للانتصار، فهذا التوتر الداخلي هو ما نسميه بالدافع. إذن يبدو واضحا الفرق بين الدافع والحافز. إذا كان الدافع هو البعد الداخلي العميق الذي يضغط على الإنسان ويضغط على الكائن البشري لينجح في مهمة، وليؤدي عملا أو ليقوم بإنجاز ما، فإن القيم نفسها تسلك هذا المسلك، وتصبح موازية من حيث هذا التعريف للدافع، لأن الإنسان الذي يريد أن يقوم بعمل ما فالقيم هي التي تحدد مسار هذا الفعل. إذن هذا جانب أول من أن الدافع والقيمة قد يكونان متوازيان على هذا المسار.

ولكن من جانب آخر، هذا التوتر الداخلي الذي بموجبه يسعى الإنسان لإنجاز عمل كي يكافأ عليه، قد يكون توترا صحيحا، وقد يكون توترا غير مقبول شرعا، ولا مقبولا اجتماعيا، إذن مما يدعو إلى استحضار القيم من جهة أخرى لتبيان أن هذا التوتر أوالدافع الذي يكابده الإنسان من أجل الوصول إلى تحقيق هدف ما، هو دافع غير مقبول إما قانونا وإما شرعا وإما ثقافة ...

إذن مجموعة من المحددات الضابطة تقوم بها القيم في إطار توضيح مسار الدافع، فالحاجات والدوافع كمفهومين وكقوتين داخليتين وكمحركين أساسيين سيكولوجيين للإنسان، إنما يعملان في إطار القيم. في غياب القيم وعدم استحضارها تكون الدوافع والحاجات عبارة عن محركين عشوائيين قد يخلقان وراءهما ما لا يستريح له الشخص نفسيا.